سئم حياة لا يستطيع أن يحيا فيها حقيقته
فبقي شتاؤه صنو صيفه...

لن أتحدث عن أدبه فما أنا بالأديب، ولن أتناول شعره لأني لست بالشاعر، بل سأروي بعض ما عرفت عن إنسان هو الآن قطعة من الماضي.

الماضي بصفائه، بواقعه، بمآسيه.

الماضي، تلك الشخصية الفذة التي تعيش في الخيال وتلقي ظلها، فإذا الظل مارد ضغط بقواه فاختنقت الكلمات في أفواه أبطاله، وسرعان ما غلب عليهم السكوت، وواجهوا مصيرهم بقلوب حزينة، وعيون عاتبة:

لقد تقلصت فجأة قامات بعض جبابرة هذا الماضي فوضعوا سبحاتهم في جيوبهم واختفوا، كيف.. ولماذا؟

لا أحد يدري! لعل السبب في هذا الخوف هو الابتعاد عن الهازئين بكل شيء، المقيمين من أنفسهم وزانين حين أعياهم إنتاج ما يستحق الوزن.

وقد يكون الابتعاد عن الأضواء بعدما شوه سماسرة الكلام، وتجار المديح، وصيارفة الألقاب معظم ألفاظنا، فصار من الصعب

على من سلم قلمه أن يجد لفظة صادقة يُخطُّها فيما يريد أن يقول.

*** قطعة متحركة من الماضي**

تعرفت عليه في دمشق منذ أن بدأت أتعرف على الأدب، وكان همي في كل مرة اجتمعت به أن ألقي عليه نظرة ثانية كمحاولة للدخول إلى أغوار نفسه، علني أفهم بعض غموض حياته. وخلال تلك المقابلات استقر في ذهني شيء واحد، هو أن هذه القطعة المتحركة من الماضي تحاول بمناعة هرة برية أن تظل في شموخها رافضة الاستسلام!

واجتمعت به منذ أعوام حين أطللت على قهوة متواضعة في مصيف بلودان، فألفيته بين جمع صغير من قرويي البلدة لا شأن لهم بالأدب، ولا علاقة لهم بالشعر. واختلطت بها الجمع فلم أسمع أفراده القول الفخم، ولا الشتائم،ولا التعالي، ولا التبجح. عندما أدركت لماذا اختار أن يجالسهم فهم بكل بساطة سذج، لا يعرفون أن يشتموا ولا أن ينالوا من كرامة إنسان، بل لقد بلغ من خمول ذكرهم أنهم لا يعرفون اختراع الأكاذيب لإطلاقها ضدّ كل من طغت موهبته.

ومع الزمن ألفت كما ألف الأديب هذه المجموعة الطيبة من الناس. ماهم بقادة رأي ليسفهوا من سبقهم، ولا بقادة فكر يتعالون على الكلمة، بل أناس عاديون.. عاديون.. يعملون في نهارهم ويأتون في الليل ليجلسوا بالقرب من الأديب الذي يحدثهم

عن مشاكل الحياة بروح خيرة، وكلام مختصر. ويتدخل الأديب في هذه المشاكل بقدر ما يظل احترامه سائداً. فهو يعلم أن للفقراء قلوباً يضنيها التعب مثل قلوب الأغنياء، فهو لا يصنف البشر فئتين، خادماً ومخدوماً، بل البشر في نظره فئة واحدة يتعامل معهم على أنهم سواسية. هكذا تعلم، وهكذا علم.. واللقب الوحيد الذي فرض عليه بالرغم عنه، وهو لقب «بك» الذي ورثه عن عائلته الدمشقية الأصيلة.

*** أشهر ما فيه هامته**

وكل من يزور مصيف بلودان صباحاً ويقصد متنزّه «أبو زاد» يرى في طريقه شخصاً طويل القامة عريض المنكبين، أبيض شعر الرأس، أحمر الوجه، يضع على رأسه قبعة من (الفلين) ونظارتين سوداوين، يسير بهدوء الشاب الذي يصعد المرتفعات، وما إنْ يدقق النظر في ذلك الصاعد حتى يفتح عينيه حتى آماقهما.. فهو معروف، وأشهر ما في جسده هامته، فهذا الصاعد بهمة الشباب يحمل على كتفيه خمساً وستين سنة كان خلالها شيئاً يذكر في الأدب.

ويجلس الأديب لوحده في زاوية نائية يعيش مع ذكرياته الطافحة بكل ما هو مثير، وحين يأتي إليه زائر لا يسمع منه أي شيء عن الشعر أو الأدب، ولا يكر بمسبحة أسماء عظام حادثهم وباحثهم، فهو رجل لا يدعي، وكل ما أنتجه حتى الآن عشرة مؤلفات هي:

(الجاحظ، المتنبي، العناصر النفسية في سياسة العرب، بين البحر والصحراء، دراسة الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، محمد كرد علي، أنا والشعر، أنا والنثر، أرض السحر) ويحتفظ بديوان شعره مخطوطاً بانتظار نشره، كما يحتفظ أيضاً بدراسة عن أحمد فارس الشدياق يأمل بأن تنشر في حياته.

وكل ما كتبه لا يتعدى عشرات المئات من المقالات هي الآن مدفونة في مجموعات الصحف العربية. وجهل الكثيرون أن الرجل أمضى سنين طويلة موظفاً كبيراً في وزارة المعارف حتى أقصاه الانتداب، ثم سرعان ما عاد بعد الاستقلال ليشغل منصب أستاذ في الجامعة وعميداً لكلة الآداب، ١٢ سنة، وهو قبل كل هذه المناصب عضو في المجمع العلمي العربي.

***حكاية الأديب**

سأحاول أن أروي بعض ما عرفت عنه.. قد لا تكون في هذه الرواية حكايته، لعلها حكاية النفس التي ارتضت التصوف عن قناعة، وأطلقت للعقل الملحاح عنانه للمعرفة والاختبار، وهي بعد حكاية أديب من الماضي يسمى هنا شاعر دمشق وأديبها الكبير، وإن لم تكن فيها سيرة الرجل، ففيها سريرة الشاعر، فهذا الذي كانت تعرفه الصحافة والسياسة، وتعرفه حلقات الفكاهة، عاش عمره مغلقاً على نفسه، لا يرى الناس فيه سوى كآبة ناعمة في عينيه تستحلفك أن لا توغل نظراتك متقصياً مافي الروح.

لقد عرفه الناس ايضاً شاعراً طالما أرهب الحكام، وكاتباً حاد القلم، عرفوا كل المظاهر... ولكنها كلها مظاهر تحجب حقيقته... فوراء المظاهر أسبابها ودوافعها.

*** ابن الشام**

لم يطلق عليه لقب شاعر دمشق وأديبها اعتباطاً، فهو حقاً ابن الشام، تربى في دورها الكبيرة الأثرية بين «أحواض الشمشير، والليلك، والقرطاسيا» وشرب من البحرة الوسطى عروس الدار، التي لا تريد أن تنزع عنها ثوب عرسها، وقطف من الياسمين الزاحف على أكتاف المخادع، وعبث في الفوارة طفلة البيت المدللة التي لا تنشف لها حنجرة، واتكأ على «خصاص» النوافذ الخشبية التي تحجب الجمال الدمشقي عن أعين الجياع.

أحب دمشق بكل جوارحه، وظل وفياً لهذا الحب الصوفي طيلة حياته التي عاشها منعزلاً عن الناس، يقضي صيفه وشتاءه في بلودان.

ووراء مظاهر العزلة أسبابها، ودوافعها...

المهم عن أي سبب تصدر هذه العزلة، وبأي خبرة تعود. لماذا يعتزل الناس ويعيش هو في قرية نائية؟.

ألأنه سئم حياة لا يستطيع أن يحيا فيها حقيقته فبقي شتاؤه صنو صيفه؟

قد يكون في سيرة هذا الأديب ما يجيبنا عن هذا السؤال، ولكن

هـذا لا يـروي ظمـأ أحـد، إذ مـا قيمـة السـيرة إن لم توصـل إلى السـريرة.

لقـد كـان فيـه قنـوط الـذي يخشـى أن لا يفهـم فيعتصـم في إبـاء، ويخفـي شممـه وراء المـزاج الخـاص. أبقـى في الخواطـر، كـل الخواطـر، قناعـة لا تتزعزع بـأن حياتـه كـانت رتيبـة، وكذلـك شـخصيته.

***قف، هـذا شـاعر**

حـدث مـرة أن انتدبـه المجمـع العلمـي بدمشـق لنظـم قصيـدة ترحيبيّـة بـأحمد شـوقي الـذي زار الفيحـاء عـام ١٩٣٠، وذهـب الأديـب إلى الفنـدق ليتعـرف إلى «أمير الشعراء»، وانتظـره حتـى أقبـل، فسـرعان مـا توقـف خـاتم الشعراء في منتصـف الطريـق وأحـدق في الشـباب قـائلاً:

هـذا شـاعر، وأقبـل عليـه ليقـدم نفسـه...

***لماذا هـرب لمنفـاه؟**

كـلّ دمشـقي يلفـظ اسمـه باحـترام، لقـد طغـى لقبـه علـى اسمـه، والدمشـقيون يعلمـون جيـداً لمـاذ هـرب إلى منفـاه الاختيـاري. إنهـم يذكـرون مواقفـه يـوم رميـت القيـم الأصليـة تحـت الأقـدام، ويتنـاقلون كيـف كـان الحكـام في العهـود المتواليـة يرهبـون اتخـاذ إجـراءات تعسـفية ضـده، وكـان الحـاكم الظـالم يكتفـي بالـترديد: سـامحه الله لا نسـتحق منـه هـذا. أمـا الحـاكم الجـائر فكـان يكتفـي بإعطـاء الأوامـر إلى زبانيتـه بتركـه وشـأنه.

والدمشـقيون يذكرونـه في النضـال الكبـير مـن أجـل الحريـة، النضـال

الأطول والأقسى، الذي لا يطلب منك أن تبذل قوة، ولا أن تهرق دماً، بل أن تطبب حماقة، وتفتح بصائر، وترد أكاذيب، وتعاند قوى، ثم ترفع عزائم وتمنع رجاءً أن يموت.

في هذا النضال الذي يطلب أن تبذل كل يوم من عقلك ما يلمس مختلف العقول، في هذا النضال المضني لم يطلب الأديب أن يكون أكثر من كاتب مجاني في صحيفة، فصرخ من أعماقه «حكم قراقوش»، وحفظ الناس المقال عن ظهر قلب، وفي فترة سابقة من أحلك الفترات التي مرت على الضمائر في وطنه، في تلك الفترة التي أوهنت القوى، وشلت العزائم، وأفلتت الأنانيات، كان عليه أن يعطي قوة من ضعف ورجاء من قنوط، وإيماناً في برودة، ولقد فعل وأين؟ في حرم الحاكم، فكتب مقالاً هز فيه مقاعد الحاكم بأمره، وكان عنوانه «أين حرية الأديب؟» وانطلق النهاشون وراء أثوابه، فكان رده:

دعوهم، إنهم لو وجدوا اللقمة بشرف لما أكلوا من أيدي السّفاحين، دعوهم إنهم يريدون العيش بأي ثمن.

وبكي أحد الناهشين بين يدي أديب شاب حين رفض أن يصافحه.

يقول عنه خصومه إنه ممسك، والذين عرفوه يروون أن هذا الأديب القليل القول، الذي رفعت مقالاته من قدر العمل الصحفيّ، كان بإمكانه أن يربح الكثير لو قبل أن يساوم؟ وقصة

الكرم تعنيه لوحده ولا تعني بلده الذي أحبه.

*** خسر السياسة والمرأة**

أما أنه قد تعثر في حبائل السياسة فنعم؛!

تعثر لأنه أراد أن يمشي على جناحين بين قوم يمشون على قدمين...

وكان يستطيع بماله أن يظفر بالمرأة، وكاد أن يظفر، ولكنه عاش عمره يطمح منها أن تعطيه عبر جسمها، عبر قلبها، عبر روحها، ذلك التفاهم الذي يتكامل به وجوده فخسرها، وأضحى يقنع من الوجود بهذا التلاقي يتم بينه وبين المعجبات بأدبه.

حدث مرة أن تعرف في باريس إلى فتاة جميلة، وكان بينهما لقاءات متعددة انتهت بأن قالت الفتاة يا أستاذ أنت كبير السن فلا أستطيع أن أحبك، فأجابها إذن دعيني أن أحبك.. والغريب أنه لا يتأفف من الرهبنة الاختيارية، رأى مرة طفلاً جميلاً ذكياً فقال: كلما رأيت طفلاً بهذا الذكاء تألمت لأنني لم أتزوج، ولكنني كلما تذكرت (فلان) ـ وسمى أحد رؤوساء الوزارات الذين اشتهروا بالسماحة ـ أحمد الله لأنني لم أتزوج..

يقولون إنه أحب والدته فخسر الزوجة، وهذا القول قد لا يكون بعيداً عن الحقيقة وإن كانت للأديب فلسفة خاصة في هذا الموضوع.

* لا أنصح أحد بزيارته

لقد زرته في داره أكثر من مرة، ولكنني لا أنصح أحد بزيارته، فكل الذي سيجده المغامر أكداساً من الكتب موزعة بين الطاولة والخزانة، وفنجاناً من القهوة إذا كانت الخادمة لم تذهب إلى السوق لتعد الطعام.

* المجتمع الدمشقي

مازرت عاصمة عربية وسألت عن أخباره، في القاهرة لا يعترفون بشاعر أو أديب إذا لم يشهد له الرجل بالأصالة، وفي عمان وبغداد وبيروت تملأ كتبه واجهات المخازن، أما في دمشق فإن الأدباء الشباب يجهلون سيرة الرجل، وكل الذي يذكرونه أنه دمشقي.

لنسر إذن مع شاعر دمشق وأديبها الكبير في حياته خطوة خطوة في هذا الممر الطويل.

نشأ في بيت تسلسلت أعمال التجارة في أهله سنين طويلة، فالبيئة التي فتح عينيه عليها، إنما كانت بيئة تجارية، وقد كان التجار في طفولته يمثلون الطبقة الوسطى في المجتمع الدمشقي، كانت حياتهم بوجه عام مبنية على الأمانة، ولا عبرة بمن شذ عن هذه الأمانة. كانت تجارة والده محصورة في مصنوعات دمشق وما جاورها، محدودة في القنابيز على اختلاف أجناسها، وفي العباءات، وفي ملابس أهل القرى وسلاحهم، يدخل فيها ما كان يسمى

«الكوفية والعقال» والخناجر المجدلانية. كان تجار دمشق في أوائل عام ١٩٠٠ قسمين، قسم يبيع أهل البدو، وقسم يرسل بضاعته إلى فلسطين وعمان والكرك، وكانت أرباحهم معتدلة جداً.

كان الطفل الصغير يدور في أسواق دمشق «مدحت باشا، السنانية، الميدان» ويرى الطرائف العجيبة، كان يرى أهل البدو قادمين من البادية يشترون بما يكسبونه من المخازن ألبستهم، ومعظمهم من قبائل «الرولا»، وكان يرى الميدان حافلاً بالدروز وأهل حوران، وتجّار نجد، الدروز وأهل حوران يبيعون حنطتهم، وأهل نجد يبيعون إبلهم، ولم تكن هناك مشاكل بين العامل وصاحب العمل، بل كانت الصلة بينهما حسنة، كل واحد يرضي الآخر، ولم يكن للمذاهب الجديدة أي أثر.

وكان المجتمع الدمشقي بسيطاً في كل شيء، في تفكيره وأكله وشربه ولبسه، كانت الحياة التي عاشها الطفل بين ذويه محدودة، فلا سياسة تشغل الناس، ولا مذاهب تقلق بالهم ولا ثقافة سطحية تدخل الغرور على قولهم، وكانت الأحاديث التي يسمعها الطفل من الضيوف تتعلق بتجارتهم وبمأكلهم، وملابسهم، وبلهوهم في السهرات، كانت البساطة في كل وجه، وكانت الطمأنينة في كل قلب من القلوب، لذلك لم ينشأ الطفل معقداً، بل نشأ بسيطاً في كل شيء، في آرائه بالحياة، وآرائه بالأدب، وأرائه بالواقع.

كان وهو عميد كلية الآداب يركب «الباص» من دمشق إلى

بلودان يومياً، وحين ترك الوظيفة صار يركب سيارة خاصة. هكذا تعلم من ذويه، تعلم أن يلبس لكل حال لبوسها، فهو كما هو في المنصب الكبير، وفي البعد عن الوظيفة الكبيرة، لم يبدل القهوة التي يجلس فيها منذ خمسين سنة.

*** دراسته بدأت في الكُتَّاب**

نشأ الأديب وهو صبيّ في الكُتَّاب، هكذا كانت نشأة الناس من ستين سنة، كانت الكتاتيب في الحارات، وفي الأسواق، وهي عبارة عن غرف مظلمة لا يتجدد هواؤها ولا تدخلها الشمس إلا قليلاً. كانت مواد الدراسة عبارة عن قراءة القرآن وتعليم الولد حسن الخط والحساب الهندي. هذا هو برنامج أكثر الكتاتيب، ما خلا كُتَّاباً أو كُتّابين كانوا يعلمون فيهما شيئاً من التفسير والفقه.

كان أستاذ الكُتَّاب شيخاً من الشيوخ،«مسطيجة» في يده يهزها من «طراحته»فيؤدب فيها الصغار، والمسطيجة عبارة عن قصبة طولها ثلاثة أو أربعة أمتار.. وكان همّ الشيخ أن يأتي الخميس ليأخذ «الخميسية» من أهل الولد، وكل همّ الولد أن يفلت في المساء من الكُتَّاب ليلعب مع أهل حارته في الحارة، وكل همّ العائلة أن يخلصوا من تعب ولدهم بينهم في النهار.

هكذا كانت الدراسة في سن طفولة الرجل، ولكنه في هذا السن دخل مدرسة العازاريين في دمشق، وقضى فيها تسع سنين درس فيها الفرنسية والعربية، في هذه المدرسة اختلط بأبناء الطبقات

الوسطى، وبعض الطبقات العليا، وكانت عائلته بين الوسطى والعليا فاستطاع أن يتعرف على حقيقة مجتمعه، تعرف على الطبقة الفقيرة في الكُتَّاب، ثم تعرف على الوسطى والعليا في المدرسة، فتكونت لديه خبرة حقيقية عن مجتمعه الذي عاش فيه دون أن يتعثر.

***كان التعصب مفقوداً**

قد يعجب الكثيرون في خارج سورية لعدم وجودة الطائفية في دمشق، ففي هذه المدينة المضيافة كان يتعلم المسلم إلى جانب المسيحي، والدرزي إلى جانب الشيعي، ولم تكن في دمشق نزعة ضد هذا الدين أو ذاك. ولعل في دراسة الطفل ما يرد ذلك إلى حقيقته. تعلم الطفل العربية على أيدي رهبان موارنة يتقنون الصرف والنحو، وكان التعليم بالإفرنسية، وكانت العلوم تدرس في هذه اللغة، وإذا كان لتلك المدرسة خاصة من الخصائص فهي أن التعصب فيها كان مفقوداً، إلا أن مدرسة العازاريين لم تُوَلِّد في نفوس الطلاب رجولة أو استقلالاً، على خلاف الجامعات التي كانت في بيروت. وكان لهذه المدرسة بعض الأثر في المجتمع الدمشقي، وكان من أهم المدارس الأميرية مكتب «عنبر» كان الطلاب يتمون دراستهم بعده في إستنبول.

*** تعلم الأدب من الحياة**

لم يشعر الطفل وهو في المدرسة بميل إلى الأدب، والسبب في

ذلك كما يعتقد الأديب كان ضعف أساتذة الأدب، أما شعوره بالأدب فكان بعد المدرسة.

انصرف بعد تخرجه إلى مطالعة كتب البلغاء مثل: «ابن المقفع، وابن عبد ربه، والثعالبيّ» ثم عكف على دراسة كتب الجاحظ، ثم قرأ بامعان دواوين الشعراء، المتنبي، ديوان الحماسة، أبي تمام. وبعدها قرأ دواوين شعراء الجاهلية فاستحكم فيه الميل إلى الشعر والأدب، وفي خلال سني الحرب الكبرى الأولى شعر الشاب بهذا الميل، على أن أهله نشأوا تجاراً وكانوا يرغبون بأن يكون تاجراً، ولكنه كان بعيداً عن التجارة فلم يجد في نفسه ميلاً إليها.

بدأ الشاب يكتب في الصحف منذ خمسين عاماً، ولم ينحرف عن هذه الصناعة فقد كانت في نظره أشرف الصناعات.

*** من هذا النبع شرب الشاعر**

كان من حسن حظ الشاب أنه اهتدى في أول دراسته الأدبية، سواء أكان في العربية أم كان في الفرنسية إلى كُتَّاب وشعراء برعوا في الكتابة والشعر.

ففي العربية خالط ابن المقفع وابن عبد ربه والثعالبي وابن خلدون، وفي نظره أن سيد الكتاب هو الجاحظ، فمنه تعلم نسج العبارة ووضع اللفظ في مواضعه والمحافظة على روح اللغة وعبقريتها، وخالط من الشعراء المتنبي والبحتري وبعض شعراء الجاهلية، فلم يبعد في الكتابة والشعر عن روح العربية، ولم يؤمن

بهذه المذاهب الجديدة التي تطرح العناية باللغة وتميل إلى شيء يشبه «الشعوبية» في الأدب، فاللغة في نظره والمحافظة على روحها وعبقريتها إنما هي أمور مقدّسة.

لا يدعي الرجل أنه صاحب مدرسة، ولا يقول إنه يبشر بمدرسة. مدرسته هي مدرسة كبار الأدباء والشعراء في الماضي والحاضر، فكل شاعر يغرف من روح اللغة وعبقريتها إنما هو الشاعر الذي يحترمه وكلّ كاتب ينحرف عن روح اللغة وعبقريتها إنما هو كاتب لا يؤمن به. إنه يمر الآن بكتابات وبشعر يحس في أثناء مطالعتها بأن معدته تنقلب عليه، فإن أصحابها يعتقدون أن كل ما يقذف به الخاطر إنما هو شعر أو كتابة ولو بعد عن روح اللغة وأصبح يشبه هذيان المحموم. لقد تعلم أن الكتابة أو الشعر فن يستلزم المعالجة الطويلة والممارسة الشاقة حتى يصل الكاتب أو الشاعر إلى درجة مقبولة إن لم تكن خالدة.. جاءه مرة أحد الأدباء الشباب من طلابه وعرض عليه قصيدة يطلب رأيه فيها، فأحب أن ينصحه فقال له:

هذه قصيدة جيدة ولكن لغتها ضعيفة التركيب.. فضحك صاحب القصيدة وأجاب:

يا أستاذ قصة اللغة قصة قديمة أتى عليها الزمن وأصبحت من العادات الرجعية، فكان جوابه، إذن لماذا جئت إلي وأنا إمام الرجعية في هذا الباب...؟

* المزاج الـذي لا يفرضـه علـى أحـد

عـاش الرجـل حياتـه حسـب مزاجـه الخـاص. لم تؤثـر فيـه البيئـة، لقـد كـان معتـدلاً في كـل شـيء. كـان معتـدلاً في اللهـو فلـم يفـرط، وكـان معتـدلاً في حـب الحيـاة فلـم يبـالغ فيهـا، لـه مـزاج لم تؤثـر فيـه بيئتـه ولا مجتمعـه، فـإذا أقبـل علـى أمـر فـلا يخجـل منـه، وإذا أدبـر عـن أمـر فـلا يحسـب حسـاباً لأحـد. عـاش في عزلـة في جميـع مراحـل حياتـه، وإذا اضطر إلى المخالطة انصرف عنه غير مبـال بـالقيل والقـال...

لم ينـدم في حياتـه علـى هـذا المـزاج لأنـه رأى فيـه سـر شـخصيته وسـر حياتـه.

* لم تؤثـر الوظيفـة علـى حياتـه

بعـد الدراسـة مـارس الوظيفـة لأنـه كـره التجـارة، وكـان لا بـد مـن الوظيفـة لأن الأدب وحـده لا يسـد نفقـات الحيـاة، وبقـي في الوظيفـة حتـى التقـاعد، وأكـثر معالجتـه لـلأدب كـانت مـن خـلال الوظيفـة. قضى أربـع عشـرة سـنة خـارج الوظيفـة. ومـرة جـاءه كتـاب مـن أحـد وزراء معـارف العـراق يطلـب أن يعلمـه بـالمنصب الـذي يريـده، وبـالراتب الـذي يقترحـه فـاعتذر، ثـم عـاد إلى الوظيفـة بعـد الجـلاء وأتم الخدمـة حتـى بلـغ التقـاعد فكـان عميـداً لكليـة الآداب إحـدى عشـرة سـنة.

حـدث مـرة أن طلـب منـه أحـد وزراء المعـارف الموافقـة علـى إدخـال أحـد المعلمـين كليـة الآداب بعـد أن اسـتطاع أن ينـال موافقـة

مجلس الجامعة، وكان المعلم من أصحاب النفوذ، واستطاع أن يقنع بفضل مداخلاته أكثرية مجلس الجامعة، ولكن العميد رفض لأن المقترح تعيينه لا يصلح لأن يكون معلماً عادياً فكيف يوافق على تعيينه أستاذاً في الجامعة.؟

وتعقدت القصة وتشعبت، ودخل التحدي ليُعَقِّد المشكلة، واستدعاه وزير المعارف في ذلك الحين وأصر على قبول المعلم بأي ثمن فأجابه العميد: لقد وجدت الحل يا معالي الوزير:

وأمسك العميد بالقلم وكتب.. (مرسوم...

١ - يسرح عميد كلية الآداب.

٢ - يعين فلان أستاذاً في الكلية.

وبسبب إصرار الوزير وضع مرسوم بتسريح عميد كلية الآداب ولكن مجلس الوزراء رفض الموافقة عليه بعد أن لقن الوزير درساً أدبياً في هذا الموضوع..

* **السياسة عبودية**

لم يمارس في حياته السياسية العملية، فلم ينتسب إلى أي حزب، ولم يمل إلى فئة معينة، فكل حزب كان يشعر باستقامته يدافع عنه. يعتقد أن السياسة نوع من العبودية، فالسياسي ينظره عبد سواه، فهو عبد الذين سينتخبونه، وعبد حزبه إذا كان في حزب من الأحزاب، وعبد الوزارة إذا كان وزيراً. السياسي في رأيه لا يشعر بحريته، وهو مضطر إلى التقلب فيدعو في المعارضة إلى أشياء معينة،

ثم يتجاهلها في الحكم، والسياسي كما يقول الرجل، يتهاون بحريته وبشخصيته، ولما كان يؤمن بحريته كل الإيمان ويقدس شخصيته كل التقديس ابتعد عن السياسة وانصرف إلى الأدب وحده.

***حين يطل من الماضي على الحاضر**

وكل من صادق الرجل يشعر أنه لا يستطيع التملص من ماضيه، لأنه يرى فيه حياة الحاضر، فلولا ماضي اللغة العربية، على حد تعبيره، لما كان لهذه اللغة ولهذا الأدب تأثير في الحاضر، ولولا ماضي تاريخنا لما كان لنهضتنا في الحاضر أثر. إنه يؤكد في أحاديثه أن عظمة تاريخنا ولدت فينا ميلا إلى روح العظمة في حاضرنا، ولو لم يكن لنا في الماضي هذا السلطان الطويل العريض لما استطعنا أن نرفع أصواتنا في الحاضر، فرأسمالنا من الماضي هو الذي يقوي عزائمنا في الحاضر، والأمم التي لا ماضي لها تجتهد في أن تخلق لها ماضياً تتغنى به.

ويقول الرجل:

– «في الولايات المتحدة مدينة صغيرة اسمها «وليمسبرغ» في ولاية «فيرجينيا» حافظوا فيها على آثار الحياة أيّام الاستعمار الإنكليزي، فترى السياح الأميركان يقصدونها في مواسم معينة ليتغنوا ببعض ماضي البلاد وهو ماض تافه جداً بالنسبة إلى ماضي الأمم العريقة.. إنا نحاول أن نهدم كل مظهر من مظاهر ماضينا القريب أو البعيد حتى لا يبقى له أثر، والسبب في ذلك، على ما

أعتقد، أن الذين ينزعون هذه النزعة إنما هم طبقة لا أثر لها في جهاد الماضي فهي تريد أن تتخلص من كل شيء قديم، من كل وجه من وجوه الحياة حتى لا يذكر الحاضر إلا أسماءها ولا يرى إلا أشخاصها ولا يسمع إلا أخبارها... نريد أن نتطور ولكن ليس معنى التطور هدم الماضي، وإنما معناه انتقال هذا الماضي من حال إلى حال بحسب مقتضيات جديدة اقتضتها البيئة والمجتمع. إنّ ماضي جهادنا البعيد هو الذي دفعنا إلى جهادنا القريب. إن الحياة تتطور، فماذا يكون موقفنا إذا جاءنا مستقبل قريب أو بعيد ونسف كل ما نبنيه اليوم لأنه غير صالح لذلك المستقبل؟ أفلا نشعر حينئذ بشيء من نكران الجميل».؟

*** أما أن تكره أو تحب**

سألته مرة أريد أن أكتب قصة حياة (فلان) وكان شخصية علمية كبيرة فأجابني:

– لا أنصحك بالإقدام على هذا العمل إلا في حالتين، إما أن تكون تحب الرجل حباً جمّاً، أو تكرهه كرهاً جمّاً..

وها أنا ذا أكتب عنه الآن فأي الحالتين تنطبق عليّ، هل الأولى أو الثانية؟ أعتقد أن الاثنتين معاً!

إذا صعدت أيها القارئ إلى متنزَّه «أبو زاد» في بلودان ورأيت رجلاً صاعداً بهمة الشباب، فاعلم أنك أمام شفيق جبري..

أرض السحر

العربية ـ الإسلام ـ نقد النفس ـ

المناقضات بين المبنى والمعنى ـ بقايا الفصاح ـ الأدب والحرية

أدب الرحلة قديم، عرفه الناس في الشرق، كما عرفوه في الغرب. ولهم فيه طرائق متعددة مختلفة، كادت تُضحي جميعاً في تاريخ العلم، إلا طريقة واحدة، متجددة على الدهر، باقية ما بقي الإنسان، تلك التي يصور فيها الرحالة الانطباعات التي بقيت في نفسه، وآثار الرحلة على شعوره وحسه، أو يعالج فيها بعض المشاكل الاجتماعية أو الأخلاقية، أو التي تتضمن مقارنة بين العادات والتقاليد والأعراف، أو دراسة لبعض المظاهر الثقافية أو السياسية...

ولقد كان همّ الرحالة في القديم، وصف الديار، وتصوير الآثار، والتعريف بالمجهول، وإعطاء القارئ صورة عما لم ير. أما اليوم، وقد أضحى درس الجغرافيا (أو تقويم البلدان)، من المواد الأصلية في المدارس الثانوية والابتدائية، وأنشئت في كليات الآداب بالجامعات شعبة للاختصاص فيه، وبعد أن قامت الحكومات في

مختلف أقطار الأرض بالتعريف بممالكها ونشر المعلومات عنها بمختلف الوسائل، وبعد أن قرب السينما إلى أذهان الناس كل بعيد، لا سيما بعد أن أضحى السينما الملون شائعاً، وعرف الناس ما سمي (السينماراما)، وهو السينما بأبعاده الثلاثة، فلم يعد لرحلات الوصف الحسي والتعريف أية قيمة تذكر، خلا بعض المجاهل التي لم تصلها أقدام الإنسان حتى الآن، وما أندرها!

وتبدو عبقرية الرحالة، في هذا العصر بقدر ما يقدم إلى الناس في آثاره، من كشف عن طبائع الشعوب وتصوير لخصائص الأمم، وتقريب للمتباعد بينها، مستنداً إلى ما ولدت الرحلة في نفسه من انطباع شخصي، وتأثر ذاتي، يدفعه إلى جمهور القراء، فإذا هو قطعة من نفسه، أوحت بها الأسفار، فسلكها في صفحات الأسفار.

من هذا الطراز الباقي، غنيت المكتبة العربية في شهر نوار الماضي بسفر ممتع، أخرجه للناس أستاذنا شفيق جبري، دوّن فيه مشاعره خلال رحلتين قام بهما إلى الولايات المتحدة الأمريكية، سماه (أرض السحر).

ولقد عقد المؤلف فصلاً خاصاً (ص١٣٤ وما بعدها) عن سبب تسمية كتابه (أرض السحر).

وإذا كان غرض أستاذنا المؤلف من هذا الكتاب، ليس تقويم

البلدان، وإنما تدوين انطباعات عقله وقلبه، فما أكثر هذه الانطباعات، وما أعظم تنوعها، وما أوفر تعددها. إنها ناشئة عن العقل والقلب، وهل يمكن أن تكون للعقل والقلب حدود؟

ولست بصدد دراسة شاملة للكتاب، فذلك كما أنه يعجزني، يخرج عن أهداف المجلة. وإنما أنا عامد إلى بعض المواضيع، التي تتصل اتصالاً وثيقاً بما أنشئت له هذه المجلة، ويتفق مع أهدافها:

اللغة العربية:

ليس غريباً أن نرى للعربية نصيباً ضخماً في الكتاب، فيكفي أن يكون مؤلفه شفيق جبري، لنتوقع غيرته على لغة العرب، وحماسته في الدفاع عنها، والدعوة لها، والتغني بها، وبحث ألوان من آثارها وخصائصها.

فإذا ما قال الدكتور حتي في خطاب ألقاه في مؤتمر الثقافة الإسلامية: «قبيل ساعة فوجئت بأني سأقول كلمة فصعقت، رأينا المؤلف يعقب في كتابه على هذه المجلة بقوله:

يقال في لغتنا: صعق، كسمع، غشي عليه، ومن مشتقات هذه المادة:

الصاعقة، ومن معاني الصاعقة الموت، وكل عذاب مهلك. وصيحة العذاب. والمحراق الذي بيد المَلَكِ سائق السحاب، ولا يأتي على شيء إلا أحرقه..

فلننظر في هذه المعاني المختلفة التي تدل عليها هذه المادة ومشتقاتها،

وحسب هذه المعاني أن يدخل فيها الموت أو العذاب، حتى نشعر بشدتها...

هذا هو أثر الشرق الذي أشرت إليه، وأعني بهذا الأثر هذه اللغة الشعرية التي درجنا على استعمالها في مخاطبتنا، حتى كدنا نبعد عن واقع الحياة.(١)

هذا هو أثر اللغة على الحياة الاجتماعية، يعرضه المؤلف بسهولة وعمق، فإذا هو عنوان لبحث مستقل، لو أفاض فيه، لزاد إحساناً إلى إحسانه.

ويسمع اعتراضاً على صعوبة تعليم العربية في بلاد المسلمين كالملايو والهند والأفغان وغيرها، فيبعث التاريخ، ويشهد المكتبات، وينشر الماضي، بكلام وجيز، ليدفع هذا الاعتراض ويقول:

فكأن المسلمين في الماضي من غير العرب، عجزوا عن تعلم العربية.

وكأن الأعاجم من المسلمين لم يؤلفوا في لغة العرب التآليف المنقطعة النظير، التي كانت مفاخر ميراثنا الفكري على وجه الدهر(٢)

---

(١) ص٢١.

(٢) ص٣٠

ويزور الجامعات، فيدهش لما فيها، ويعجب بتقدمها، ولكنه إلى جانب ذلك يطرب لسماع اللغة العربية فيها، على أفواه الطلاب العرب:

وما خلت جامعة من الجامعات التي زرناها من طلاب عرب، فكأن الله لم يشأ أن يحرمنا من نغمة هذه اللغة المباركة[1].

وترى الحزن بادياً على قلم المؤلف يوم استمع إلى تدريس اللغة العربية في الجامعات، أو في المدرسة العسكرية، سواء أكان في تقطيع الألفاظ، أو في طغيان العامية على الفصحى[2]

ويدعى إلى سهرة في دار أحد المهاجرين العرب، فيفد عليه شابان:

جاء هذان الشابان ليطعنا على اللغة العربية أمام رجل يعبد هذه اللغة عبادة: ما هذه اللغة؟ إن أكثرها آرامي الأصل.. لقد دافعت كثيراً وناقشت كثيراً، حتى ثارت أعصابي، وأربدّ وجهيا، وجحظت عيني، وكدت أخرج من نفسي[3] ..

فانظر إلى هذه التعابير القوية التي تنطلق من شقي يراع المؤلف، والتي تنم عن الغضب العنيف للغة التي عبدها عبادة ـ على حد تعبيره ـ

---

(١) ص٧٥

(٢) ص٦٨، ٨٨

(٣) ص١٢١.

ويزور مدينة (بروكلين) فما الذي يسره فيها؟

ولكن الذي سرني في (بروكلين) أني أدخل مطعماً فأسمع الناس يتكلمون بالعربية. إلا أن هؤلاء الناس هم آخر من يتكلم بهذه اللغة، لأن أولادهم من بعدهم يجهلون العربية.

هذه نماذج حَفَلَ الكتاب بكثير منها، تدلك على مبلغ تعلق المؤلف بلغته، وترسم الطريق لكثير من السائحين العرب، في معالجة بعض المشكلات التي تتصل بمن يلقون من الناس، وفي أساليب التعبير عنها.

المسلم:

والغيور على العربية غيور على الإسلام بالبداهة، ولقد عبر المؤلف عن هذا في كتابه بعبارة بليغة جامعة فقال:

لما ظهر الإسلام، وحمل إلى الدنيا كتابه ولغته، ثبت هذه اللغة في أكثر الآفاق التي انبسط عليها، وصارع اللغات التي مر عليها، أو التي خلفها الماضي، حتى غلب على معظمها. كانت لغته لغة دين ودولة، فلم يجد الداخلون في دين الله مندوحة لهم عن نسيان لغتهم، وحفظ اللغة الجديدة التي جاءتهم[1]

فانطلق المؤلف يدافع عن الإسلام في كل مجال، بحرارة مشبوبة، فلا يسمع شبهة إلا فندها، ولا غمزة إلا ردها إلى نحر مطلقها.

---

(١) ص١٥٨.

إنك تراه يهتز لمحاضرة الأستاذ زين العابدين بن أحمد، كبير المحاضرين في جامعة الملايو، ويدُلُّك أسلوب تلخيص محاضرته على روح المسلم الأصيل، الذي يعتز بالقرآن، جامع الأمم الأسلامية فيقول:

فالقرآن هو الصلة الوحيدة، التي تجمع بين ملايين من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. هذه الصلة يريدون تمزيقها، إمّا بالتفتيش عن نصوص جديدة للقرآن، وإمّا بإخضاع الإيمان للمعادلات الجبرية(١)

ويزوره زائر لا يعرفُهُ ليقول له فجأة: أفلا تجد أن صلواتكم الخمس في النهار تعطل أعمالكم، وكذلك صلوات رجال الحكومة فإنها تعطل أعمال الناس؟ فإذا بالمؤلف دوَّن صفحة كاملة في الدفاع عن هذه التهمة الباطلة. ارجع إليها في الكتاب(٢)، فإنها آية من آيات أستاذنا في منطقه المسلسل، وقوة بيانه، وترادف حججه، وسلامة تفكيره، في دفع الأذى عن الشريعة، ملتمساً إلى ذلك أحلى ذريعة.

ويدعى إلى اجتماع عقد في جامعة(يالو آلتو) حضره فريق من الأساتذة والطلاب، فيسأله أحد الأساتذة فجأة: هل يسع الإسلام

---

(١) ص٢٩

(٢) ص١٤٢.

أطوار الحياة الحديثة؟ إن الفصل الذي دوَّنه أستاذنا المؤلف بهذا العنوان، من أمتع فصول الكتاب وأقواها(١) ، لا يغني تلخيصه عن الرجوع إليه، وإنما أكتفي بالفقرتين الآتيتين لترى طريقة المؤلف في معالجة هذا الموضوع الدقيق في مجتمع أمريكي:

فالإسلام إنما هو إسلام على كل حال، لا يضيق ولا يتسع، وإنما الذين يضيقونه أو يوسعونه هم المسلمون أنفسهم(٢) ..

كانت لغة العرب قبل الإسلام لغة بدو، لا تتسع لغير مظاهر الصحراء. فلما جاء الإسلام أصبحت لغة حضارة تتسع لأمور الدين والسياسة والفلسفة والعلم والاجتماع وغير ذلك. فلم يجمد المسلمون في تفكيرهم وشعورهم وذوقهم، وإنما تتبعوا أطوار الفكر والشعور والذوق في مجامع مظاهرها، وبقي الإسلام إسلاماً، وبقي المسلمون مسلمين(٣)

ولست أشك في أنك بعد هذا، ستحمد لأستاذنا المؤلف حُسْنَ صنيعه، في دفاعه عن الإسلام، في بلد ما زالت حقيقة الإسلام فيه مشوهة(٤) .

---

(١) ص١٤٩

(٢) ص١٤٩

(٣) ص١٥٠

(٤) ص٢١٨.

نقد النفس:

نقد النفس، أو النقد الذاتي، مزية لا يقوى عليها إلا الذي تمكن من نفسه، ووثق من قدرته على كشف عيبه. ولعلها أعظم ميزة يُرزقها الرجل العاقل، لأنها دليل قوي على معرفة النفس، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه.

ولقد رأيت أستاذنا المؤلف، لا يتحرج في أن ينقد نفسه في موضعين اثنين من الكتاب. وفي يقيني أنه قد أراد أن يضرب الأمثال للناس، ليأخذوا عنه طريقته في كشف الحق، ولو كان في (نقد النفس). إنه يسمي الأشياء بأسمائها، فيقول: هذا خطأ. ولنستمع إلى حديثه عن نفسه:

شرعت في هذا الصباح في الاستئناس بالطبيعة في أميركة، لقد أنهى المؤتمر أعماله.. وقد رجعت إلى دفتري فلم أجد فيه جملاً منطقية، وإنما فيه كلمات متقطعة، وهذا خطأ كاتب الرحلة، فقد يلزمه أن يدون خواطره في النهار على أي شكل كان، وأن ينسقها في المساء أو في الليل، حتى لا تضيع الصور في ذهنه، ولم أفطن إلى هذا العمل إلا بعد وصولي إلى (سان فرنسيسكو)، وكنت قبل ذلك أدوّن في دفتري صوراً منقطعة، وأعتقد أنها ترسخ في الذهن إلى حين الكتابة، وهذا خطأ(١)

---

(١) ص٤١

أفرأيت أصرح من هذا النقد الذاتي، وأقوم سبيلاً؟

ويروعه انصراف الأميركي إلى العمل، فيجري مقارنة بينه وبيننا في هذا الشأن، ولكنه لا يحب أن يظلم أحداً، وإنما يمثل بنفسه فيقول:

ما أعظم الفرق بين ميلنا وبين ميلهم إلى العمل. إني لا أريد أن أظلم أحداً، فأنا أتكلم عل نفسي، فقد قضيت أربعين سنة في الذهاب إلى المقاهي، كل مرة أصرف في المقهى ثلاث ساعات، أو أربع ساعات، وفي بعض الأحيان خمس ساعات، بين أركلية أُجدّاد نارها، وماء أطلب زيادة ثلجه، وقهوة أوعز بإكثار الهيل فيها، ونَرْدٍ يساعدني الزهر فيه حيناً ويعاكسني، حيناً، لقد قضيت أربعين سنة على هذا الشكل(١) ...

تلك فضيلة لا يرقى إليها الأقلون، ولن تجدها إلا لدى الذين ظهرت نفوسم تجارب الحياة، فأرادوا أن يمنحوها للذين ما زالوا في بداية الطريق. وهي في حقيقتها مظهر من مظاهر الشعور الإنساني العميق، الذي تمحى أمامه جميع قيود المجتمع التي فرضتها التقاليد.

المناقضات بين المعنى والمبنى:

يكاد علماء الأقوام (أتنولوجيا) يجمعون على أن المجتمع

---

(١) ص١٥٩

الأمريكي، ما زال في طور التكوين، فالأميركان، وإن كانت الإنكليزية هي اللغة الغالبة بينهم، وإن كانت طريقتهم في الحياة واحدة، فما زالوا حتى اليوم يفتقدون الروح المشترك، لأنهم مجموعة من الخلائق، لا يتصلون بأرومة واحدة. ومن هنا نشأت متناقضات كثيرة في هذا المجتمع، الذي أطلقوا على أرضه لقب (قارة). ويبدو أن هذا التناقض قد أثر على أستاذنا المؤلف، فجاءت في كتابة تعابير، لم نألفها في تآليفه السابقة. إنها تعابير جديدة علينا، وعلى لغة العرب، ليس فيها ما ننكره عليه، فاللغة بنت الحياة، تتأثر بها، وتؤثر فيها.

وهذا الجديد، لا يعدو أن يكون جدة في موضع استعمال اللفظ، لا جدة في اللفظ نفسه. فهو حين يتحدث عن كثافة الاشجار في سهول ممتدة يقول: إن العين في الطريق كانت تقع على صحارى من شجر بدلاً من أن تكون صحارى من رمال(١).

فعوضاً عن أن تجد سلاسل من جبال، فإنك تجد سلاسل من شجر(٢). وما زلنا نقطع في الطريق كثبانا من شجر، لا من رمال(٣).

إن أستاذنا المؤلف قد فطن إلى أنه يستعمل اللفظ في غير

---

(١) ص٤١.

(٢) ص٤٢.

(٣) ص١٢٩.

موضعه، فأعقب صحارى الشجر، بصحارى الرمال، وقرن سلاسل الجبال بسلاسل الأشجار، وأردف كثبان الرمال بكثبان الأشجار. ولست اجد حرجاً في هذا، وإنما أردت أن أدل على تأثر الأسلوب، بنوع جديد من الحياة.

بقايا الفصاح

ولأستاذنا المؤلف غرام قديم بما سماه هو «بقايا الفصاح». يعمد إلى اللفظ العامي المألوف، فيستعمله لأنه فصيح معروف. وله في ذلك مذهب ردده في أكثر من مناسبة:

ذلك أن فصل اللغة عن الحياة أمر تأباه طبائع الأشياء. ولا علينا أن نستعمل الألفاظ العامية، إذا كانت موجودة في المعاجم بنفس المعنى. ولقد سمعته مرة يطرب للفظ «فنك» لأن العرب استعملوها في مواضع استعمالها اليوم فقالوا: «فنكت الجارية». لا بل إنه يذهب إلى أبعد من هذا، فيرى أن بعض الألفاظ العامية ينبغي أن تدخل الفصحى، لأن الحياة أقوى من اللغة. سألته مرة: ما هو مقابل (زعل) العامية في الفصحى؟ فقال: لا أجد لها مقابلاً، ولكني أرى أن تستعمل بهذا المعنى، الذي تريده العامة.

وقد جرى على قاعدته هذه في كتابه، فإذا ما نظر إلى السيارات على أبواب الجامعات قال إنها «مشكوكة»(١). وإذا ما دخل مطعماً

---

(١) ص٦٨

ورأى ازدحام الناس فيه قال: «الناس كلهم محشوكون في المطعم[1] وإذا ما رأى سفيرنا كثير الاهتمام قال: ولا أنسى مشية سفيرنا وهو مشغول الذهن، ملبك التفكير[2]

وأمثال هذا تراه منثوراً في الكتاب هنا وهناك، وكله من بقايا الفصاح.

الأدب والحرية:

خاتمة المطاف فصل عقده أستاذنا المؤلف في آخر كتابه، تضمن إشراقات نادرة المثال في أدبنا العربي، تناولت شؤوناً عديدة، يصحّ أن يكون كل منها عنواناً لدراسة كاملة، آمل أن يتخصص في استقصاء البحث عنها من أوتي الصوفية في العلم، والذوق في حسن الاختيار، والهمة في العمل، هذا إذا لم تبادر إلى تولّيها وزارة الثقافة والإرشاد القومي:

فالمؤلف يربط بن الأدب وبين التاريخ السياسي لسورية في هذا الفصل، ويرد الفضل في بث روح المقاومة أيام الاستعمار الفرنسي إلى ما نشر الشعراء والكتّاب، ولا يهمل فضل السياسيين، فيقول:

لقد دخلت فرنسة بلادنا، وما لبثت أن خرجت منها بعد ربع قرن، ولم تخرج بفضل سلاحنا، ولكن شعراءنا وكتابنا وخطباءنا،

---

(١) ص٦٨.

(٢) ص٨١.

ورجال سياستنا، ظلوا يلهبون القلوب، ويغرسون فيها بغض الاستعمار ربع قرن كامل، حتى إذا أمكنت الفرص قضي على هذا الاستعمار في طرفة عين(١) .

وهل في التاريخ ثورة سياسية أو عسكرية، لم تسبقها ثورة فكرية؟ ألم نر أن جميع الثورات الكبرى في التاريخ قد مهد لها فلاسفة وشعراء وكتاب وخطباء، فبثوا في الناس آراءهم، ونشروا أفكارهم، ودعوهم إلى الانتقاض على الظلم، والمطالبة بالحياة والعدالة والمساواة

ويعود أستاذنا المؤلف بعد هذا إلى القوى الروحية والفكرية الموجودة والكامنة في الدنيا، فيحلها محلها من تطوير الأمم، والنهوض بها، ودفع عجلتها، ويذهب إلى أبعد من هذا فيعتبر، بحق، أن هذه الحضارة المادية، لم تكن إلا نتيجة للروح فيقول:

لا يقعنَّ في خلد أحد أن المعامل وحدها إنما هي عنوان عظمة الأمة. فإن أميركة لم تبلغ عظمتها بفضل معاملها وحدها، ولكنها بلغت هذه العظمة بفضل الروح التي خلقت هذه المعامل(٢)

وينتقل بعد هذا إلى ما نملك نحن من هذه القوى فيرى أن:

هذه القوة المعنوية نجدها في ميراثنا الفكري الذي خلفه لنا

---

(١) ص٢٠٦

(٢) ص٢٦٨

العرب من قديم الدهر. لقد خلف لنا العرب من قديم الدهر. ميراثاً في الفكر والروح والشعور لا يعدله ميراث المعامل. فإذا قلبنا النظر في هذه الكتب التي تملأ خزائننا في بلادنا، وفي أوربة نفسها، فأنا نجد فيها قوة لا تَعدِلُها قوة النفاثات والقنابل الذرية(١)

هذا بعض ما في هذا الكتاب القيم. وليس ما قدمت دراسة، ولا تلخيصاً، وإنما هي خواطر مرت في ذهني خلال قراءته، قدمتها على أنها درر من بحر. ويكفيك من القلادة ما أحاط بالجِيد.

ظافر القاسمي

(١) ص٢٦٩

حوار مع الأستاذ سعيد الجزائري

حول صديقه الراحل شفيق جبري

أجرى الحوار: نادر مكانسي

بالأمس وعلى مدرج جامعة دمشق، تم تأبين الشاعر والأديب الكبير شفيق جبري وصحيح أنه رحل، لكن أعماله، تبقى خالده، وتبقى شاهداً على أصالته، وابداعه الفكري.

وما أكثر أصدقاؤه، وتلاميذه، واخوانه وقد اخترت الأستاذ سعيد الجزائري الذي رافقه في مجالسه، وعرف الكثير عنه، ليحدثنا عن الشاعر والأديب الراحل، وسألته: هل تحدثنا عن صداقتك بالشاعر الراحل وكيف بدأت هذه الصداقه؟

أعتز بأنه كان صديقي، وأعتز بأنه كان أستاذي قبل أن يكون صديقي، ولقد أفاق جيلنا على الحياة الأدبية والفكرية في سورية، على نخبه من الأعلام في الأدب والشعر والوعي القومي، وإذا سألتني كيف تعرفت إلى هذا الرجل الذي فقد الوطن العربي، بفقدانه شاعراً متميزاً من الطراز الأول، من الشعراء المعاصرين.

اسمح لي أن أعود بك إلى الماضي، عندما كنت طالباً في مكتب

عنبر في مدينة دمشق وكان أستاذنا في اللغة العربية وأدابها، الأستاذ محمد البزم، كان أستاذنا البزم يحدثنا عن الشاعر الكبير خير الدين الزركلي، الذي كان بعيداً عن الوطن حينئذ، ويطلب منا، أن نعرب أشعاره في قصائده.

وفي الوقت ذاته، كان أستاذنا يتحدث إلينا باسهاب وثناء عن الأستاذ شفيق جبري.

كان يقول لنا: إن شعراء الشام في تلك الفترة هم شفيق جبري وخير الدين الزركلي وخليل مردم، إضافة إلى الأستاذ البزم، كانت الصحف السورية حينئذ تنشر قصائد شفيق جبري وكان يلقيها بنفسه في المنتديات الأدبية، وفي المهرجانات السياسية، وكثيراً ما كانت تلك المهرجانات حفلات رثاء لمن تنتهي بهم أجالهم.

وكنا على حداثتنا في ذلك المكتب «مكتب عنبر» وعلى أثر ما كان يلقيه محمد البزم، علينا من دروسه، نتابع في اهتمام بالغ قصائد شفيق جبري ونستمتع بمقطوعاته، البليغة، التي كانت الصحف في دمشق وحلب، تنشرها بين حين وحين.

كثيرون، لقد عرفوا الشاعر الكبير أما الذين استطاعوا أو استطاعت أقدارهم الحسنة أن يتعرفوا عليه عن قرب، فكانوا يسعون، إلى مجالسه الخاصة، ومن حظي وعلى حداثتي أيضاً كنت بين هؤلاء لا أعرف لماذا اختارني واحداً من أصدقائه المقربين، لعله

قدري، أو لأنه كان يحب الذين يعجبون به وهذه هي الطبيعة الإنسانية.

وانتهيت من الدراسة إلى الصحافة.

ووجدت فيها الفرص الكثيرة التي استطعت استغلالها في التقرب من هذا الرجل، وتعارفنا جيداً، ولا سيما في إدارات الصحف، الكبرى الثلاث، التي عملت فيها أو كنت أتردد على إدارتها، جريدة القبس، وكان صاحبها المرحوم نجيب الريس، يحفظ الكثير من الشعر العربي ويختتم كل مقال اختتامي ببيت من الشعر ينسجم مع موضوعه، والأستاذ نصوح بابيل، صاحب جريدة الأيام الذي كان يحرص على ألا تفوته مناسبة لا يجتمع فيها مع الأستاذ شفيق، وكذلك الحال مع الأستاذ يوسف العيسى صاحب جريدة ألف باء الذي كان يهتم بالأدب العربي والشعر ويستشهد في الكثير من مقالته بالأبيات الشعرية، ويضحك لي قدري دائماً، وفي حياتي الصحفية حينئذ، ويمضي بي هذا القدر، إلى التعرف الجيد إلى أحد السادة ، في الأدب العربي هو الأستاذ معروف أرناؤوط صاحب جريدة فتى العرب وأمام إدارته ومطبعته، في ساحة المرجة في دمشق، حينئذ، كنت أتقيد بالتعبير الصحفي القائل، بأن الصحافة فضول، وإنها بحث عن المتاعب وإنها في الوقت نفسه صاحبة الجلالة الرابعة، وعلى هدى هذه التعبيرات، كنت أحشر نفسي

وعيني ومسمعي في حلقة صباحية يومية كان عميدها في تلك الفترة الأستاذ شفيق جبري و«نرجيلته» والأستاذ يوسف عيسى و«نرجيلته» والأستاذ نصوح بابيل و«ونرجيلته» أيضاً.

أما أنا فكنت أدخن وأصغي إلى ما يتحدثون في نهم جائع إلى المعرفة في الأدب وفي الصحافة، وفي الشعر القومي الوطني، الذي كان يلقيه علينا في تلك الحلقة أستاذنا شفيق جبري.

من خلال معرفتك به، ما هو مزاجه، وطبيعته وكيف كانت نظرته للناس؟

أرجو أن لا تحرجني فقد أعددت لهذه الموضوعات جميعاً دراسة شاملة قد تصدر أو يصدر بعضها في ملف خاص يعده اتحاد الكتاب العرب في القطر، ولكنني.. وقد يكون هذا في طبعي، قد أحببت فيما أحببت في الأستاذ شفيق جبري هذا المزاج الخاص حاول المرحوم أن يحب الناس جميعاً لأنه إنسان، إنسان كبير، هل الشاعر الكبير إلا إنسان كبير؟

هل يتدفق ذلك البيان العذب الذي أرسله شفيق جبري من قصائد، ومحاضرات، وأدب، إلا من إنسان.

والإنسان في شفيق جبري ليس موضوعاً واحداً تنقله صحيفة سيارة من الأفواه إلى الأعين والأسماع، ولكنه أحاديث تطول وتطول.

صحيح أنه كان يؤثر العزلة، تدل على ذلك إقامته الدائمة والطويلة في بيته في مصيف بلودان، قد يعتب عليه بعض الناس على تلك العزلة التي ارتضاها لنفسه وربما قد ارتضاها لمزاجه، لكنه معذور فليس في طبع الفنان «والشاعر وهو الفنان» أن بتحمل من بعض الناس ما قد لا يحتمل.

وقد يكون في تأثره بأبي الطيب المتنبي قد ألقى على الكثيرين من الناس أقنعة سوداء.

ألم يلق المتنبي مثل هذه الأقنعة على دنيا الناس في كثير من شعره ومعذور أيضاً في تلك العزلة، فلولاها فيما أظن لم يخرج إلى الناس هذه الكتب القيمة، كانت محاضراته في كلية الأداب عن المتنبي دروساً بليغة، في التحليل القيم للشاعر العربي الخالد الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، ثم كانت محاضرته عن الجاحظ في كلية الأداب، رحلة طويلة حلوة والرحلات الطويلة قد تطول مع الجاحظ.

كم وددت ياصديقي، أن تقرأ كتابه عن الجاحظ، لقد أجمع المستشرقون، بعد أعلام النقاد في الوطن العربي على أن كتابه عن الجاحظ كان خير كتاب أخرج للناس عن الجاحظ، ثم ألقى في معهد الدراسات العليا محاضرات كثيرة أهمها فيما أذكر عن العلامة محمد كرد علي وقد خرجت هذه المحاضرات في كتاب،

وتحدث شفيق جبري في تلك المحاضرات عن نفسه وشعره فألف مما تحدث كتاباً عنوانه «أنا والشعر» وكتاباً أخر عنوانه «أنا والناس» لماذا صرف النظر عن تأليف هذه الكتاب؟

هل أراد ألا يكشف ما يعرف من أسرار الناس، أردت هنا كلمة الشاعر إيليا أبو ماضي: لست أدري، ولكن هذه النظرة التي يظن أنها سوداء لن تكن سوداء، فقد كان في هذه العزلة يقرأ كثيراً، ويكتب قليلاً.. هذا هو السر في أن هذا الرجل الكبير استوى كبيراً في نتاجه الغالي، في الكتب التي دارت بها عجلات المطابع في حياته والتي ستدور بها بعد موته.

كيف كانت مجالسه الخاصة؟

عندما يأنس إلى جلسائه فيها كان المرح كله والحب كله والانطلاق كله، يحسن النكته، يرتجلها، ويستشهد على الحوادث والأحداث، في السياسة والأدب والاجتماع، يستشهد بالأشعار التي يحفظها الشعراء العرب المنطوين.

لا صحة لما يظن أنه كان سوداوي المزاج أصحاب الأمزجة السوداوية، لا يحبون الناس ولا يحببهم الناس، كان حديثه مرحاً، واستقباله لمن يحب حافلاً، ونوادره عندما يتبحبح مع اخوانه، تتدفق ساخرة ضاحكة في وقت معاً. ولعله كان في طليعة العاملين بين أعضاء المجمع العلمي العربي، وكان المجمع يكلفه بأن يمثله

كشاعر عربي سوري وأن يقول كلمة المجمع في المحافل والأندية.

هذا هو شفيق جبري الشاعر، برأيك ما هو السبب في عدم طبع ديوانه الشعري؟

سألته في بلودان عن السبب في عدم طبع ديوانه فأجابني أحسب يا سعيد أنه سيطبع بعد موتي، وبدا أنه حسبانه كان حقيقة، فديوانه سيطبع بعد موته فعلاً .

ولست هنا في موضع التحليل والعرض لشعره، إن مثل هذا العمل والإقدام عليه عمل كبير ويحتاج إلى وقت طويل.

لقد جمع الراحل بين الشعر والنثر فما رأيك به كاتباً؟

قليلون هم الشعراء الكبار في الوطن العربي الذين تفوقوا في النثر، تفوقهم في الشعر، في الصف الأول من هؤلاء، هو الأستاذ شفيق جبري، الذي ألف كتب قيمة منها ما ذكرته قبل قليل ومنها «العناصر النفسية في سياسة العرب» و«بين البحر والصحراء» و«دراسة الأغاني» و«أبو فرج الأصفهاني» و«أرض السحر» ولم ينقطع عن الكتابة في النثر في الصحف اليومية ولا سيما في الموضوعات القومية والوطنية ولقد شارك الشاعراً وكاتباً، من الطراز الأول في الأعمال القومية، في الدعوة إلى الجهاد في سبيل الوحدة العربية.

ويضاف إلى هذا.. إنه كان يكتب في إحدى مراحل حياته

مقالات سياسية وأدبية، باللغة الفرنسية، في جريدة أو مجلة كانت تصدر في بيروت. وفي بعض الصحف الفرنسية، إن تمكنه القوي من اللغة الفرنسية، وكان قد تعلم في مدرسة العازاريين في دمشق مكن له كل التمكن من أن يجيد اللغتين في وقت معاً، ولا أعرف إذا كان نظم في الفرنسية أم لا.

وقد تركت ثقافته الفرنسية المتمكنة بصماتها على أدبه ومحاضراته، إذا قرأت كتابه المتنبي مثلاً : وجدته يستشهد بأعظم الأدباء، والمفكرين الفرنسيين.

أرجو أن تحدثنا عن المرحلة الأخير من حياته؟

في المرحلة الأخيرة من حياته انقطع كل الانقطاع تقريباً عن المجيئ من بلودان إلى دمشق لا صيفاً ولا شتاءاً، بعد الأصيل عند كل مساء، ينزل من داره في طريق أبو زاد إلى ساحة بلودان، وهناك مقهى صيفي يقضي فيه أمسيات الصيف يتحدث إلى المتحلقين في المقهى ويشهد اللاعبين وهم يتبادلون اللعب بطاولة الزهر، وكان حكماً ساخراً كعادته بين اللاعبين يلعب قليلاً وجيداً، لكنه كان حريصاً على أن يكون هو الرابح وأعذره إن الذي يربح كل الجولات في الحياة الأدبية والفكرية وفي القصائد الشعرية، يريد في الوقت نفسه أن يكون الرابح في التسلية، وكان هذا الحرص منه موضوع تعليقات أصحابه وأنا منهم، حضرت

ساعاته الأخيرة، وكتب عنها مقالاً مطولاً في مجلة هنا دمشق، وقد كنت في تلك اللحظات الأخيرة إلى جانب الدكتور شكري فيصل وكان يحدثنا عن مشروعاته التي أتمها وعن مشروعات له يريد أن يتمها إنه حب الحياة، ولكننا في تلك اللحظات كنا نحس وكأن ملاك الموت يطل على الرجل العظيم فماذا يريدني بعد ذلك أن أقول إن شفيق جبري صفحات مذهبة في تاريخ الأدب العربي والفكر العربي لا في بلادنا فحسب وإنما في كل الوطن العربي.

نادر مكانسي

١٩٨١

شفيق جبري رائد كبير
لا ينبغي أن ننساه

منذ ثلاث سنوات غادرنا هذا الأديب السوري الكبير في هدوء ووقار فلم يشعر برحيله أحد وخلا مكانه في ندوتنا فلم يتساءل عنه صديق أو زميل هل هي الظروف الأسيفة والمحن المتكاثرة التي سلبت عيوننا الرؤية فلم تعد تدرك من حضر أو غاب وحرمت قلوبنا النبض فلم تعد تفرح بمولود ولا تحزن لميت؟

ربما.. ولكنه على كل حال وضع لا يدعو إلى الاطمئنان ولا يدفع إلى الراحة.. لأن فقدان الأمم لذاكرتها هو أكبر ما يمكن أن يصيبها من محن وأعظم ما يمكن أن يجتاحها من كوارث. فما كان شفيق جبري بالشخصية العابرة في حياتنا لقد كان من هذا الرعيل العظيم الذي حمل أعباء النضال القومي ورفع أركان التهضة الأدبية في أعقاب الحرب العالمية الأولى فكيف ننساه كل هذا النسيان ونتنكر له كل هذا التنكر؟

كان شاعراً كبيراً بمقاييس عصره وقد كان معظم الشعر في تلك الأيام منصرفاً إلى الخارج إلى مشاكل الوطن وأحزانه وإلى

معارك الأمة وجراحاتها كانت قصيدة الشعر راية تلتف حولها الجموع وسيف يطعن به قلب العدو، ونشيداً يشد من عزمات الرجال. وكان فترة من اليقظة الوطنية والصراع القومي فرضت نفسها على كل الفنون وفي مقدمتها فن الشعر.

وكان شفيق جبري يومئذ في العقد الثالث من عمره عاصر الفترة القاسية من حياة الشعب السوري حينما نقض الحلفاء وعودهم للعرب وراحوا يقسمون الامبراطورية العثمانية فيما بينهم وكانت سوريا من نصيب الفرنسيين ووقعت معارك وسالت دماء واستل شاعرنا كلمته من غمدها مع كتيبة الشعراء الوطنيين والقوميين.

حين يقضي هنانو يقف شاعرنا في جامعة دمشق يبكي الزعيم الراحل ويواسي الشعب الحزين وعندما تمتد يد أثمة في الظلام لتغتال فوزي الغزي ينهض الشاعر مستنكراً مؤكداً أن مثل هذه الخيانه لم تنال من مسيرة النضال

بدمي وروحي الناهضين على الحمى الطالعين على العرين أسودا
الزاحفين إلى القيود وملؤهم عزم يحل سلاسلاً وقيودا
أبت المكارم أن تذل رقابهم وأبت أمية أن نكون عبيدا

وشاعرنا الشاب ينتهز كل الفرص ويستغل كل المناسبات ليؤجج روح النضال في بني قومه وينفخ فيهم من روح كلماته

المجلجله وموسيقاه المدوية فما هو ذا في رثاء أحمد كرد علي أحد رجال الصحافة السورية وشقيق محمد كرد علي يؤكد لعشيرته أن دمشق مهما ازدحمت عليها الخطوب فإنها ستظل صامدة لا تستسلم قوية لا يصيبها الضعف بفضل كهولها قبل شبابها وفضل عروبتها المتمكنة في نفوس أبنائها

لكن جلق في ازدحام خطوبها	***جبارة بكهولها وشبابها***
لم تستنم لأذى فإن هاجت بها	***دهم الخطوب أوت إلى أقطابها***
عركت عروبتها السنين فأقلقت	***عبث السنين بجدها وبنابها***
ظل العروبة وارق في جلق	***متمكن في أرضها وسحابها***

والذي ينظر في شعر شفيق جبري السياسي سوف يلاحظ أنه لم يكن شاعر الوطن السوري وحده كانت أفاقه القومية لا تبرح ناظريه حتى في أحلك الظروف التي كانت تعصف في بلده فقد كان يدرك منذ هذا الوقت المبكر أن مشكلة كل بلد عربي إنما ترتبط إرتباط المصير بمشاكل الوطن العربي الأكبر ولهذا لم يكن غريباً أن نلتقي بصوته الجهير في كل مناسبة عربية فنحن حين نسمعه في مصر يؤدي واجب العزاء في «سعد زغلول» قائد ثورة ١٩١٩ فيخاطب المحتفلين بذكرى الأربعين والطائفين بضريحه في ذلك اليوم محملاً إياهم رسالة دمشق وتحيتها إلى المناضل العظيم لم تنسه جراحات بلده التي أحدثها الاستعمار في ذلك الحين أن ينهض بهذا الواجب القومي يقول شفيق جبري:

يـــــاواردين علــــــى الدفيــــــن ... وصــــــادرين عــــن الدفيـــــن
بـــالنرجس الريــــان والريحــــان ... أو بالياســـــــــــــــــمين
حيـوا الضريـح علـــى اسـم جلـق ... هــــــائدين وخاشــــــــعين
تلكــم أميـــــة فــــي دمشــــق ... تحـــار فــــي الجـــرح الســـخين
نبـــأ علــــى الفيحـــاء هـــاج ... كهولهـــــا والناشـــــئين
ســـلمت دمشــق فلــم تـــزل ... نهـــب الكـــوارث والشـــجون
إن كفكفـــت مـــاء الجفـــون ... جـــرى بهـــا مـــاء الجفـــون
لكنهـــا ياســعر قـــد ذهلـــت ... علــــى الألــــم الكميــــن
وتذكـــرت المـــا بـــوادي ... النيـــل هـــز العــــالمين
يــــاصورة الوطـــن الكريــــم ... ورمــــز معقلــــه المصـــــون

وينتقـل شـفيق جـبري بـين أفيـاء مـن المعـاني القوميـة في قصيدتـه ليستخلص لأبناء جيله العبرة من هذه المناسبة فيقـول:

لا خـــير فـــي شـــعب يســـاق ... إلـــى الأذى ســـوق الضئيـــن
مـــن هـــان فـــي طلـــب الحقـــوق ... قضــــى بغصـــات المهيــــن

وفي نفس عـام ١٩٢٧ الـذي مـات في سـعد زغلـول نـراه يتجشـم عنـاء السـفر إلى بغـداد ليقـول كلمـة الشـعر في تـأبين شـاعر العـراق وفيلسـوفها جميـل صدقـي الزهـاوي بمناسـبة ذكـرى وفاتـه. ويديـر الشـاعر في قصيدتـه حـواراً بينـه وبـين دمشـق الـتي تشـفق عليـه مـن رحلة الصحراء الشـاقة فكيـف يرضـى الشـاعر لنفسـه أن يـترك المدينـة العريقـة بغوطتهـا الحسـناء ورياضهـا الغنـاء ليسـلم نفسـه لبيـداء لا

تسمع الأذن فيها صوتاً ولا ترى العين في أرجائها إلا السحب الكامدة والموت يربض في كل نواحيها فلا يملك الشاعر إلا أن يرد على مدينته طمأنينتها ويذكرها بأن من وراء هذه الصحراء بغداد ودجلة وتاريخاً مجيداً لبني العباس وماضياً جمعت أواصره أطراف القطرين الشقيقين ثم أليست بغداد حزينة لفقد شاعرها فهل تستطيع دمشق أن تقف بمنأى عن حزن أختها؟

استمع إلى هذا الحوار وتأمل معي كيف استطاع الشاعر أن يصوغ عواطفه العربة في هذا الأسلوب الكلاسيكي الفخم الضخم والذي لا تألفه أذاننا اليوم ومع ذلك فلعلك تحس كما أحسست بذلك الصدق في عواطف الشاعر وكيف استطاع أن يحملنا على مشاركته تلك العواطف ويردنا إلى صور حية من ماضينا عسها أن تشد على أيدينا وتقوي من عزائمنا

قالت دمشق وقد ناجيت غوطتها ... ومائج الدوح في جنبي مطرد

اتترك الروض والأنغام تملأه ... وننتحي البيد، لا روض ولا غرد

ما أنت والبيد تطويها وتنشرها ... كأنما اليم منزوج به الأمد

* * *

فقلت: مهلاً وراء البيد أودية ... في الرافدين عليها الأهل والولد

قد تبعد الأرض إلا عن جوانحنا ... فليس دون اهتزاز القلب مبتعد

مهلاً دمشق فإن أزحف إلى بلد ... يزحف إلى بنو العباس والبلد

أطوي السنين فتلقاني حيالتهم ... كأنني بينهم دان وإن بعدوا

أكاد ألمس في جنبي خلافتهم	كانما الليل من لألائها يقد
وتوشك العين أن تلقى قصورهم	يموج فيها الهوى والعيشة الرغد
كاتني وحمى المأمون مزدحم	أرى الوفود إلى أفيائه تفد
ماض من الدهر لمتنا أواصره	لا الغور يطرحه عني ولا النجد
الغدليب إذا غنى بدجلته	غنى على برداه الطائر الغرد
تألفت فيهما الذكرى على وطن	كما تألف روح المرء والجسد
أيوجع الجرح في بغداد مهجتها	وتجمد الشام لا تبكي ولا نجد؟

هذا هو شفيق جبري الشاعر القومي في العقد الثالث من هذا القرن يقف من حيث فنه الشعري الى جوار الكلاسيكيين الجدد الكبار الذين لم يكن يعنيهم أن يعبروا عن تجاربهم الذاتية بقدر ما يشاركون بشعرهم في الحياة العامة .

والواقع أننا على الرغم من قلة الشعر «شفيق جبري» الذي بين أيدينا لأن أحدا لم يقم حتى الآن بنشر شعره الغزير ونستطيع أن نلمس لديه تلك الحساسية الفنية التي تمكنه من اختيار أوزانه وألفاظه وصوره وذلك حسب الموضوع الذي يتناوله .

ونحن في هذه الحالة قد يلتبس علينا الأمر فيخيل إلينا أننا أمام شاعر غير الشاعر الذي عرفناه في المحافل القومية والمناسبات العامة.

أقرأ هذه القصيدة التي كتبها سنة ١٩٢٨ أي في تلك الغترة التي كان يزأر فيها بشعره القومي فسوف تسمع هذه المرة موسيقا

ناعمة سريعة وسوف ترى صوراً نفسية دقيقة تترجم عن حياة العانس البائسة وقد وقفت ذات صباح أمام مرآتها تتحسر على شبابها الضائع ولاتجد من النعيم الذي حولها ما يعزيها عن انتقاد شريك الحياة .

ونحن هنا لن نأخذ الشاعر بمقاييس عصر غير عصره فنذهب إلى أن موقفه لم يكن بالموقف المتقدم من المرأة فقد أعترف في سنة ١٩٥٨ حينما نشر كتابه «أنا الشعر» بأنه كان بمعنى من المعاني يقصد نفسه في هذه القصيدة ..ونحن نعرف أن «شفيق جبري» قد ظل طوال حياته المديدة التي جاوزت الثمانين بلا زواج أو ولد.. فكأنه كالعانس كان ينظر إلى حياته الخالية من المرأة فيحس أن كل ما بلغه من مجد أدبي إنما هو باطل وقبض الريح . يقول «شفيق جبري» في تلك القصيدة :

نظرت إلى مرآتها والطير في وكناتها
كتمت هواها في الفؤا د فلاح في لحظاتها
فتأوهت حتى حسبت الموج من أوهاتها
وبكت فكدت أخال أن الظل من عبراتها
الشمس توحشها إذا طلعت على شرفاتها
وإذا الضحى بسمت لها عبست على بسماتها
ما الورد؟ ما المنثور ما الريحان في جنباتها؟
ما الدر؟ ما الياقوت؟ ما المرجان في جنباتها؟

ولكن «شفيق جبري» لم يكن شاعراً فحسب بل أغلب الظن انه حرص على أن يطوي صفحة الشعر من حياته منذ وقت مبكر وأنا لا أدري ما الذي دفعه إلى ذلك وقد كان شعره مرجواً لأن يتغير ويتطور ويترجم عن نفسه المرهفة الحس والتي كانت تدفعه بعيداً عن الناس بعد أن فرغ من حياة العمل كعميد لكلية الآداب جامعة دمشق نعم.. لا أدري لماذا انصرف شفيق جبري عن الشعر.

هل هو تفرغه للنقد والتاريخ الأدبي، وإلى دراسة اللغة ومشاركته في مجمعها في القاهرة.

ونحن في هذا الميدان نستطيع أن نعده رائداً في اتجاهين رئيسين من اتجاهات الدراسة الأدبية أولهما هو الأدب المقارن، والثاني هو الاتجاه النفسي في دراسة الأدب.

وإذا ذكرنا «العقاد» و«محمد خلف الله أحمد» و«وحامد عبد القادر» كرواد للتحليل النفسي في الأدب فلا بد أن نذكر معهم «شفيق جبري» وهو مع «العقاد» أحد الذين عالجوا التاريخ العربي من ناحية نفسية..

هذا هو الرجل الذي فقدناه منذ ثلاث سنوات ولم تذكره الصحافة إلا بالندر القليل وما أظن أن هذه الكلمة بكافية للوفاء بحق هذا العالم الجليل والأديب الكبير. فلعلها تكون حافزاً لبعض

تلاميـذه أن ينهضـوا بحقـه الكـامل عليهـم وحقـه الكـامل هـو دراسـة حياتـه وتقديـم تراثـه للنـاس يسـتلهمونه ويفيـدون منـه ويرحـم الله شفيق جبري ويكرم مثواه بقدر ما أحب لغته واخلص لعرويتـه.

بقلم ماهر قنديل
مجلة العربي
القاهرة ١٩٨٤